

## الدرس العاشر تاريخ التشريع الإسلامي

### الخطوة الثانية:

ظهور الأئمة الأربعة وسط جامعة علمية كبيرة على صعيد العالم الإسلامي كانوا بمثابة النسيج الموحد الجامع لمذهبي الحديث والرأي وتكتيل الاجتهاد الإسلامي على صراط واحد مبلور عمل على حفظ الشريعة الإسلامية بين النص الذي لا يعرف رأي وبين الرأي الذي لا يعتمد على نص، ونبدأ بأقدمهم.

### الإمام أبو حنيفة النعمان:

❖ ولد في عام 80 هـ وأثبت له العلماء رؤية الكثير من الصحابة فهو على ذلك تابعي أما دور الإمام أبو حنيفة في ذلك الوسط هو الموحد لذلك النسيج الموحد الجامع، هو إمام عظيم لكن نجد صعوبة في رواية ترجمته بشكل مفصل كما روي عن الأئمة الآخرون لأننا لا نجد شيئاً عن مؤلفات أبو حنيفة وصل إلينا بشكل مباشر فالإمام مالك وصل إلينا موطأه والأمر للشافعي والمسند للإمام أحمد فالإمام أبو حنيفة له فقه كثير ولا نجد مؤلف يجوي فقه ولا شك أن وجود مؤلفات تفيد كثيراً في ترجمة وبيان شأن هذا الرجل، ورغم وجود تلامذة عظام لازموه وكتبوا في فقه الكثير ولكن في الحقيقة إن فقه الإمام أبو حنيفة لا يتمثل فيما نجد في فقه الإمام أبو يوسف والإمام محمد بن الحسن الشيباني فهو أكثر بكثير على الرغم من كثرة الآثار التي تركها أصحابه فهي لم تستوعب كل فقه أبي حنيفة.

❖ أيضاً الإمام أبو حنيفة لم يدون أصوله ومنهجه الاجتهادي وهي من العوامل التي تثير الغموض في ترجمته.

❖ لقد اجتمعت الأمة على أن الإمام أبو حنيفة من أعلم علماء عصره وعلى قوة حجته وعلى أنه كان يمتاز بقوة علمية فريدة هي قدرته على الاستنباط واستخراج المسائل من أعماق النصوص ودلالاتها وإليك من أقول علماء عصره.

**الفضيل بن عياض:** وهو من هو في علمه وصلاحه وتقواه وتصوفه وقد عاصره يقول: كان أبو حنيفة رجلاً فقيهاً معروفاً بالفقه واسع المال معروفاً بالإفضال على كل من يطوف به صبوراً على تعلم العلم بالليل والنهار حسن الليل كثير الصمت قليل الكلام حتى ترد مسألة في حرام أو حلال فكان يحسن أن يدل على الحق، هارياً من مال السلطان.

**جعفر بن الربيع:** يقول أقيمت مع أبي حنيفة خمسة سنين فما رأيت أطول منه صمتاً فإذا عن شيء في الفقه تفتح وسال كالوابل.

**عبد الله بن المبارك:** العالم الكبير المشهور والتابعي العظيم، يقول كان أبو حنيفة مخ العلم ( أي تأخذ منه اللباب ).

**الإمام مالك:** سئل عنه فقال ( لو جاء إلى أساطينكم هذه فقايسكم على أنها خشب لظننتم أنها خشب )

فهو قوي في بيان الحجة وإبراز الدليل وإسكات الخصم.

❖ وهنالكَ من يتهم أبو حنيفة بقلّة الحفظ والرواية ولم تكن له بضاعة في الحديث؟! وهذا كذب فقد صح أنه رحمه الله تفرد برواية مئتين من الأحاديث فضلاً عن الأحاديث التي اجتمع مع المحدثين الآخرين في روايتها، ومما نقل عنه أن له مسند وبالتحقيق وجد أنه من جمع أبي يوسف وسمي الآثار وفيه أحاديث كثيرة رواها أبي حنيفة وجمع الأحاديث التي رواها تلميذاه نجد الكثير من وإذا نظرت في نقاش له مع بعض العلماء تجده يروي بضعة عشر حديثاً ومروياته في باب الصلاة تزيد عن المئة حديث، ويوجد فرق كبير بينه وبين مشايخه فقد رحل إلى الحجاز وأقام فيها ( في مكة ) ستة سنوات وأخذ العلم من علماء الحجاز

الذين هم علماء الحديث لا ليغير مذهبه بل لينقح ويتمم ويكمل، دخل على المنصور فقال له أحد الجالسين: هذا عالم الدين اليوم، فقال له المنصور من أين أخذت علمك فقال أخذته من أصحاب العبادة عن العبادة ( عبد الله بن عمر، عبد الله بن العباس، عبد الله بن مسعود، عبد الله بن عمرو بن العاص ) بهذا نج أن الإمام أبو حنيفة خرق لأول مرة الحدود الفاصلة بين المذهبين فناقش وأخذ وأعطى، وقد أثر بهذا على أصحابه وخاصة الإمامين أبو يوسف ومحمد الذين أخذوا العلم من الحجاز فالإمام أبو يوسف من تلاميذ الإمام مالك إمام دار الهجرة وأبرز علماء الحديث وأخذ الحديث وحفظه وهو معروف بكثرة الحفظ والرواية وكذلك الإمام محمد وأخذ أيضاً من الثوري وتبادل العلم مع الشافعي فقد تعلموا من الإمام أبي حنيفة التلاقي والأخذ من الجميع هنا يتبلور دور الإمام أبو حنيفة، ولكن من جهل شيئاً عاداه فالذي يسمع كلام أحب العلماء وفتاويه وأرائه واجتهاداته من دون مجالسته بما يقول عنه مبتدع مخطأ جاهل، وهذا ما حصل مع أبي حنيفة في أول عصره وبعد أن ذاع صيته وسمع به علماء الحجاز والشام وتلقوا فتاويه ولم يجالسوه ولكن بعد أن جاء إلى الحجاز وجالسوه وسمعوا منه وعرفوا حجته اختلف الأمر تماماً وإليك مثلاً: يقول عبد الله بن المبارك: سألتني عبد الرحمن الأوزاعي ( من علماء الشام ومن علماء الحديث ) من هذا المبتدع الذي ظهر في العراق ويسمى أبو حنيفة فلم أجبه لكنني أخذت أعرف له مسائل في الفقه عويصه وأحدثه عن فتاوى يمكن أن تكون إجابة عنه فقال والله إن هذه لأجوبة سديدة قلت له هو فقيه في العراق قال من هو قلت أبو حنيفة قال: إن هذا إنسان ذو علم غزير فالزمه فتقرب منه وجالسه وناقشه فتحوّلت نظرته وأخذ يدعو الناس إليه.

❖ ثم إن الذين يشاهدون معارضة بين كلام أبو حنيفة وبعض الأحاديث فيصفونه بالجهل فهم يفعلون ذلك لأنهم زانوا كلامه بميزانهم ثم إن الناس ليسوا معصومين عن الخطأ ويكفيك قول الإمام الشافعي: **الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة** ويقول عندما ارتحل إلى العراق إلى بغداد والتقى مع محمد تلميذ الإمام أبي حنيفة التقى به ليتلمذ على تلميذ أبي حنيفة ولو التقى أبو حنيفة لتلمذ عليه وقال **أخذت من محمد بن الحسن وقر بعير من العلم، ولكن هذا لا يعني أن الإمام محمد معصوم بل إنه رجع عن كثير من آراءه وأخذ بقول الشافعي وكذلك فعل الشافعي ولا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذوهه، فمثلاً** جاء سيدنا عمر رضي الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: لقد أصبت أرضاً في خيبر وهي أحب ما أملك فماذا تنصحني بها فقال عليه الصلاة والسلام: [ إن شئت حبست أصله وتصدقت بفرعه وثماره فلا تباع ولا توهب ولا تورث ]، وهي طريقة تكسب فيها ثواب مستمر، **وهذه** حادثة حرت بين الإمام أبي يوسف والإمام مالك وتناقشا في كلام أبي حنيفة في الوقف وله دليل من الأحاديث فروى له الإمام مالك ذلك الحديث الصحيح فقال أبي يوسف لو وقف هذا الحديث على أبي حنيفة لرجع عن قوله، هذا ما علمه أبو حنيفة لتلاميذه وما درهم عليه الرجوع عن الرأي عند وجود الحديث، إن أفضل العلماء غير المعصومين للإتباع هم هؤلاء الأربعة، فأبو حنيفة هو الذي بدأ يجمع شمل هذين المذهبين ولم يجتمع لأحد في ذلك العصر مثل ما اجتمع عنده من الذكاء وقوة الإرادة والعلم والاستنباط.

❖ أمثلة: فيما روته كتب المناقب:

- دخل الإمام أبو حنيفة على المنصور وعنده رجل يدعى أبو العباس **الطوسي** وكان سيء الرأي في الإمام وقال أبو العباس في نفسه اليوم أوقع بهذا الرجل فقال لأبي حنيفة إن أمير المؤمنين يأمرنا بضرب أعناق قوم لا ندرى ما هم

( يعني هل يجوز ذلك ) فقال له: أمير المؤمنين يأمرنا بالحق أم بالباطل قال:  
بالحق قال: فاتبع الحق ولا تسأل عنه.

- دخل عليه نفر من الخوارج وكان لهم صولة وجولة في عصره وسيوفهم  
تلتهج في أيديهم وقالوا له يا أبا حنيفة نسألك عن مسألتين إن أحببت عنهما  
تركنك وإلا قتلناك فقال: اغمدوا سيوفكم فإن بريقتها يشغل قلبي فقالوا كيف  
نغمدها ونحن نحتسب الأجر أن نضعها في عنقك قال فاسألوا قالوا: رجل شرب  
الخمير فسكر فمات وامرأة زنت فحملت وأثناء الطلقة ماتت، أفتحكم بأئهما  
مسلمين أم كافرين، فقال أبو حنيفة من أي الفرق كانوا؟ أمن اليهود قالوا لا  
قال أمن النصارى قالوا لا قال من المجوس إذاً قالوا لا قال فمن قالوا مسلمين  
قال: فلقد أحببتم، قالوا هل يدخلان الجنة أم النار؟ قال أقول فيهم ما قاله سيدنا  
عيسى في كتاب الله { إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز  
الحكيم }.

- وكان مشهوراً بدينه وورعه وقد عرض القضاء عليه مراراً وتكراراً فرفض  
فجلد أكثر من مئة جلدة وقال أبو حنيفة للمنصور: اتق الله يا أمير المؤمنين فإني  
والله لا أملك رخائي فكيف أملك غضبي وأنا لا أصلح لها قال كذبت إنك  
تصلح لها قال فأنت تعترف أنني لا أصلح لها ما دمت كاذباً فكيف يصلح  
للقضاء من كان كاذباً.

وكان ذو مال كثير أنفق على أبي يوسف حتى أتم علمه ويقول فيه لولا فضل  
أبو حنيفة ما تعلمت.

وتذكروا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حال آخر الزمان حتى يلعن  
آخر هذه الأمة أولها لكي نتق الله في علمائنا.